

عود الضمير وأثره في توجيه المعنى عند ابن جرير الطبري

- دراسة لهاء الغائب، من سورة الجاثية إلى سورة العاديات أنموذجا-

The Return of the Pronoun and its Effect in Channelling the Meaning in Ibn Jarir Tabari's Interpretation of the "Ha" A Case Study from Sura Al Jathiya to Sura Al 'Adiyat

د. جمال بوكو*

جامعة الجزائر 1، كلية العلوم الإسلامية الخروبة، مخبر الشريعة، الجزائر،

d.boukou@univ-alger.dz

تاريخ الاستلام: 2022/08/14؛ تاريخ القبول: 2024/05/11؛ تاريخ النشر: 2024/06/15

ملخص:

تناولتُ في هذا البحث مسألة من المسائل اللغوية التي لها علاقة بالتفسير، وهي مسألة عود الضمير (هاء الغائب) في توجيه المعنى في التفسير عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره "جامع البيان عن تأويل آي القرآن"، كما أُنِي ذكرْتُ أقوال المفسرين، كالإمام أبي حيان الأندلسي، والسَّمين الحلبي وغيرهم من المفسرين، ثم رجَّحتُ في كل مسألة من مسائل عود الضمير ما ظهر لي، وذلك من خلال نماذج مختارة من سورة الجاثية إلى سورة العاديات، وفي الأخير نتائج البحث منها إنَّ في اختلاف عائد ضمير الغائب، هناك ما هو اختلاف تنوع (لا يضرُّ بالمعنى) ولكنه يختلف في توجيه المعنى، وهناك ما هو اختلاف تضاد، وهذا مما لا شك فيه أن المعنى يختلف، وكذلك الحُكم.

كلمات مفتاحية: توجيه المعنى؛ ابن جرير الطبري؛ هاء الغائب؛ سورة الجاثية؛ سورة العاديات.

Abstract:

The present article deals with one of the linguistic issues and its connection with Quranic exegesis. The latter concerns the "ha" of the third person singular pronoun in channelling meaning in Imam Ibn

Jarir Tabari's exegesis entitled: Jami' Al Bayan fi Ta'weel Al Quran" with a statement of the commentators such as Ibn Hayan Al Andalusi, Al Sameen Al Halab i and others. Then, I stated the weighing of the Commentators on all the issues in connection with the "ha" of the third person singular through selected examples from Sura Al Jathiya to Sura Al Adiyat. Finally, the results of the research, including that in the difference of the return of the third person pronoun, there is a difference of diversity (does not harm the meaning), but it differs in directing the meaning, and there is a difference of antagonism, and this is undoubtedly that the meaning differs, as well as the judgment.

Keywords: Channelling the Meaning; Ibn Jarir Tabari's; person pronoun "H"; Sura Al Jathiya; Sura Al 'Adiyat.

1. المقدمة:

الحمد لله وحده لا شريك له، له ما في السموات وما في الأرض، خلقَ الخلقَ لعبادته، وأرسل الرُّسلَ لِيُبَيِّنُوا للناسَ طريقَ الهدى، وأَيَّدَهُم بِالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ، وَمِنْ أَعْظَمِهَا هَذَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى أَفْضَلِ الْبَشَرِيَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ دَعَا إِلَى هُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَا بَعْدُ:

فإن القرآن الكريم كتاب هداية لمن أراد الهدى، وكتاب تدبُّرٍ لمن أراد التدبُّر، وكتاب تشريع وأحكام لمن أراد التحكيم إليه، لذا نجد أن العلماء- رحمهم الله رحمة واسعة- بذلوا جهودا في استخراج أحكامه وحكمه، أسرارهِ وإعْجَازِهِ، وقد تناول بحثنا هذا قضيةً متعلّقةً باللغة لها علاقةٌ بتوجيه المعنى في التفسير، من خلال تفسير الطبري، معتمداً على سورة الجاثية إلى سورة العاديات، نماذج مختارة، فانتظّم البحثُ على مقدمة ونماذج تطبيقية، وخاتمة وفيها أهم النتائج التي توصلتُ إليها.

كيف تناول الإمامُ الطبري "هاء" الغائب في توجيه المعنى، وهل لها أثرٌ في المعنى؟ أم لا؟، وهل لهذا الاختلاف في تحديد عائد الضمير أثرٌ في التفسير أم لا؟

2. نماذج تطبيقية لهاء الضمير الغائب من سورة الجاثية إلى سورة العاديات:

سوف نذكر نماذج من سورة الجاثية إلى سورة العاديات، التي لها علاقة بـ"هاء" الغائب وأثرها في توجيه المعنى عند الإمام الطبري في تفسيره، على النحو الآتي:

2.1. قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤﴾ وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَتَّبِعْتِ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢٥﴾ (سورة الجاثية، الآية: 24-25).

الشاهد: ﴿وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَتَّبِعْتِ﴾.

يرى الإمام الطبري رحمه الله أن الضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَتَّبِعْتِ﴾ يعود إلى المشركين المكذبين بالبعث بعد الموت، فهم ذلك من خلال كلامه، من غير أن يصرح بذكر "هاء" الضمير فقال رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: وإذا تَتْلَى على هؤلاء المشركين المكذِّبين بالبعث آياتنا»⁽¹⁾.

أما الإمام ابن عطية فيرى أن الضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَتَّبِعْتِ﴾ يعود إلى كفار قريش دون غيرهم من المشركين، لأن سياق الآيات يحتمله، فقال رحمه الله: «الضمير في: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائد على كفار قريش. والآيات: هي آيات القرآن وحروفه بقرينة قوله: ﴿تَتْلَى﴾»⁽²⁾. أما الشوكاني يرى أن الضمير يعود على المشركين، وهو الذي اختاره الطبري، فقال الشوكاني رحمه الله: «وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَتَّبِعْتِ أَيُّ: إِذَا تُلِيَتْ آيَاتُ الْقُرْآنِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ»⁽³⁾.

يظهر لي -والله أعلم- أن ضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَتَّبِعْتِ﴾ يعود إلى قول الدهرية في إنكار الميعاد سواء من كفار أو من وافقهم من مشركي العرب، جمعا بين الأقوال التفسيرية، لأن السياق يحتمله. فيكون المعنى: وإذا تَتْلَى آياتنا على الدهريين، سواء من كفار قريش أو غيرهم من المشركين، ما كان دليلهم إلا أن قالوا اتَّبُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فيما تقولون.

2.2. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالْسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ

(1) أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية، مكتبة ابن تيمية القاهرة، ج 80/22.

(2) أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ، ج 88/5.

(3) الشوكاني، فتح القدير، دار ابن كثير، الطبعة الأولى، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، 1414هـ، ج 11/5.

إِنْ تَنْظُرْ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴿سورة الجاثية، الآية: 32﴾.

الشاهد: ﴿وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾

يرى الطبري أن ضمير الهاء ﴿فِيهَا﴾ يعود إلى الساعة، ولم يذكر الأقوال الأخرى التي يحتملها الضمير الغائب، فقال رحمه الله: «والهاء في قوله ﴿فِيهَا﴾ من ذكر الساعة. ومعنى الكلام: والساعة لا ريب في قيامها»⁽¹⁾. فالإمام الطبري رحمه الله أعاد ضمير الغائب إلى أقرب مذكور وهي "الساعة".

ذكر الشوكاني أن ضمير "الهاء" ﴿فِيهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ فقال رحمه الله تعالى: «وَالسَّاعَةُ أَي: الْقِيَامَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا أَي: في وقوعها»⁽²⁾. فيكون المعنى: "والقيامة لا ريب في وقوعها"، يمكن أن نعقب على الإمام الشوكاني الذي أعاد ضمير الغائب إلى المفهوم وهي "القيامة" وليس إلى المذكور وهي "الساعة"، والأصل عود الضمير الغائب إلى المذكور دون المقدّر.

يظهر لي -والله أعلم- أن ضمير الهاء في ﴿فِيهَا﴾ من قوله تعالى: ﴿وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ يعود إلى الساعة، لأنها هي المذكور في السياق، وهو الأولى، وهو ما رجحه الطبري رحمه الله تعالى. فيكون المعنى: "والساعة لا ريب في قيامها ووقوعها"، عملاً بقاعدة عود الضمير إلى المذكور أولى من إعادته إلى المقدّر.

3.2. قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَرِيهِ قُلْ إِنْ أَفَرَيْتُهُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَلَّا بِمَهْ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٨﴾﴾ (سورة الاحقاف، الآية: 8).

الشاهد: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾

رجّح الإمام الطبري عود ضمير "الهاء" في ﴿فِيهِ﴾ إلى القرآن الكريم، دون أن يذكر الأقوال الأخرى التي يحتملها عائد الضمير، فقال رحمه الله تعالى: «هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ يقول: ربي أعلم من كل شيء سواه بما تقولون بينكم في هذا القرآن والهاء من قوله ﴿تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ من ذكر القرآن»⁽³⁾. لأن السياق الآيات تتحدث عن القرآن الكريم كما في

(1) تفسير الطبري، ج 22/86.

(2) الشوكاني، فتح القدير، ج 5/14.

(3) تفسير الطبري، ج 22/209.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلْتَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (سورة الأحقاف، الآية: 7).

أما الإمام ابن عطية رحمه الله فقد يرى أن ضمير الهاء في ﴿فِيهِ﴾ تعود إلى القرآن ويحتمل عوده إلى "ما"، فقال رحمه الله تعالى: «والضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ يحتمل أن يعود على القرآن، ويحتمل العودة على ﴿بِمَا﴾»⁽¹⁾.

أيضاً نجد أبا حيان يرجح المعنيين فقال رحمه الله: «وَالضَّمِيرُ فِي ﴿فِيهِ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى ﴿مَا﴾ [أي بما يندفعون فيه من الباطل]، أَوْ عَلَى الْقُرْآنِ»⁽²⁾.

يمكن أن نعقب على الإمامين ابن عطية وأبي حيان رحمهما الله تعالى، بأن السياق من أوله كان يتحدث عن القرآن الكريم بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلْتَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾، فوجب عود الضمير إلى القرآن، وأما عوده إلى ﴿مَا﴾ فهو تقدير.

من خلال ما سبق يظهر لي -والله أعلم- أن "الهاء" في ﴿فِيهِ﴾ من قوله تعالى: ﴿تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تعود إلى القرآن الكريم، لأنه هو المحدث عنه في سياق الآيات، بناء على قاعدة عود الضمير إلى المحدث عنه أولى من إعادته إلى المقدر.

4.2. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُحْرَةً وَأَصِيلًا ۝﴾ (سورة الفتح، الآية: 8، 9).

الشاهد: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ و﴿تُوَقِّرُوهُ﴾ و﴿تُسَبِّحُوهُ﴾

اختلف العلماء في تحديد عائد الضمير في قوله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ و﴿تُوَقِّرُوهُ﴾ و﴿تُسَبِّحُوهُ﴾ فهناك من يرى أن الضمائر كلها عائدة إلى الله وحده، ومنهم من يرى أن الضميرين ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ و﴿تُوَقِّرُوهُ﴾ يعودان إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وأما الضمير في ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ يعود إلى الله وحده، وإلى هذا ذهب الإمام الطبري فقال: «و"الهاء" في قوله ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ من ذكر الله وحده دون الرسول وقد ذكر أن ذلك في بعض القراءات:

(1) أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ، ج 93/5.

(2) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، 1420هـ، ج 434/9.

(وَيُسَبِّحُوا اللَّهَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) «⁽¹⁾. نجد ابن جرير الطبري أعاد ضمير الغائب ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وَتُوقِّرُوهُ﴾ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأما قوله تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ فقد أعاده إلى الله تعالى بناء على القراءة التفسيرية (المدرجة) عن «قتادة في بعض الحروف (وَيُسَبِّحُوا اللَّهَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)»⁽²⁾.

الإمام ابن عطية ذكر قولين في عائد ضمير الغائب، ونسب القول الثاني إلى جمهور المفسرين: «وقال بعض المتأولين: الضمائر في قوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وَتُوقِّرُوهُ﴾ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ هي كلها لله تعالى. وقال الجمهور: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وَتُوقِّرُوهُ﴾ هما للنبي عليه السلام، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ هي لله»⁽³⁾.

أما أبو حيان الأندلسي فيرى أن الضمائر كلها عائدة لله تعالى، وجاز تفريقها فقال: «وَالظَّاهِرُ أَنَّ الضَّمَائِرَ عَائِدَةٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَتَفْرِيقُ الضَّمَائِرِ يَجْعَلُهَا لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَعْضُهَا لِلَّهِ تَعَالَى»⁽⁴⁾.

ذكر الإمام الشوكاني الخلاف في عائد الضمير فقال : «وقيل: وَالضَّمِيرَانِ فِي الْفِعْلَيْنِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهَذَا وَقِفٌ تَامٌ، ثُمَّ يَبْتَدِئُ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾، أَي: تُسَبِّحُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بُكْرَةً وَأَصِيلًا أَي: غُدُوَّةً وَعَشِيَّةً، وَقِيلَ: الضَّمَائِرُ كُلُّهَا فِي الْأَفْعَالِ الثَّلَاثَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَكُونُ مَعْنَى ﴿تُعَزِّرُوهُ وَتُوقِّرُوهُ﴾: تُثَبِّتُونَ لَهُ التَّوْحِيدَ وَتَنْفُونَ عَنْهُ الشُّرَكَاءَ، وَقِيلَ: تَنْصُرُوا دِينَهُ وَتُجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ»⁽⁵⁾. نلاحظ في كلام الإمام الشوكاني أن من أعاد الضميرين إلى النبي صلى الله عليه وسلم بنى على الوقف التام في قوله تعالى: ﴿تُعَزِّرُوهُ وَتُوقِّرُوهُ﴾ ثم يستأنف الكلام في قوله تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾.

يظهر لي -والله أعلم- أن الضميرين في قوله تعالى: ﴿تُعَزِّرُوهُ وَتُوقِّرُوهُ﴾ يعودان إلى النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه يعود إلى أقرب مذكور وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، وأما ضمير "الهاء" في ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ فإنه يعود إلى الله وحده. فيكون المعنى: "عظموا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم وانصروه، ونزهوا الله تعالى من كل نقصٍ وعيبٍ".

(1) تفسير الطبري، ج 22/152.

(2) المصدر نفسه، ج 22/209.

(3) تفسير ابن عطية، ج 5/129.

(4) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج 9/486.

(5) الشوكاني، فتح القدير، ج 5/56.

5.2. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ

(⁽¹⁾ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ ﴿٢١﴾) (سورة الطور، الآية: 21).

-الشاهد: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ﴾.

رجَّح الإمام ابن جرير الطبري عود ضمير "الهاء" في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ﴾ إلى الآباء المؤمنين من غير أن يصحَّ بعائد الضمير فقال رحمه الله: «وأولى هذه الأقوال بالصواب وأشبهها بما دلَّ عليه ظاهر التنزيل، القول الذي ذكرنا عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، وهو: والذين آمنوا بالله ورسوله، وأتبعناهم ذرياتهم الذين أدركوا الإيمان بإيمان، وآمنوا بالله ورسوله، ألحقنا بالذين آمنوا ذريتهم الذين أدركوا الإيمان فأمنوا، في الجنة فجعلناهم معهم في درجاتهم، وإن قصرت أعمالهم عن أعمالهم تكملة منا لأبائهم، وما ألتناهم من أجور عملهم شيئاً»⁽²⁾. فيكون المعنى: "أن الله عزوجل يرفع درجات أبناء المؤمنين إلى آبائهم، فيلحقون بهم، وإن كان الأبناء دونهم في العمل، فلم ينقص ثواب الآباء حين ألحق الله بهم أبنائهم".

ذكر الإمام أبو حيان قولين في عود ضمير "الهاء" من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ﴾ ورجَّح عوده إلى المؤمنين ونسبه إلى الجمهور، فقال رحمه الله: «وَالظَّاهِرُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي ﴿أَلَتْنَاهُمْ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ تَعَالَى يُلْحِقُ الْمُقْصَرَ بِالْمُحْسِنِ، وَلَا يُنْقِصُ الْمُحْسِنَ مِنْ أَجْرِ شَيْئًا، وَهَذَا تَأْوِيلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ جُبَيْرٍ وَالْجُمْهُورِ. وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ: الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْأَبْنَاءِ»⁽³⁾.

أما السَّمين الحلبي فقد ذكر القولين ورجَّح عوده إلى المؤمنين فقال رحمه الله: «وفي الضمير في ﴿أَلَتْنَاهُمْ﴾ وجهان، أظهرهما: أنه عائِدٌ على المؤمنين. والثاني: أنه عائِدٌ على أبنائهم. قيل: وَيُقَوِّيه قَوْلُهُ: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ﴾»⁽⁴⁾.

بعد ذكر أقوال أهل العلم في تحديد "هاء" ضمير الغائب في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ

(1) معناه ما أنقصناهم، يقال أَلَتْه يَأْلَتْه أَلْتًا إِذَا نَقَصَتْ. الفراء، معاني القرآن، ج 5/66.

(2) تفسير الطبري، ج 470/22، 471.

(3) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج 572/9.

(4) أبو العباس أحمد بن يوسف، المعروف بالسَّمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ج 73/10.

مِنْ عَمَلِهِمْ ﴿٦٠﴾ يظهر لي -والله أعلم- أن الضمير الغائب يعود على الآباء، فيكون المعنى ما نقصنا من أعمالهم شيئاً فيردُّ على أبنائهم، فلو عاد "هاء" ضمير الغائب إلى الأبناء لكان المعنى مختلف، فيكون حنثاً "أن الله عزوجل يرفع درجات الآباء المؤمنين إلى أبنائهم، فيلحقون بهم، وإن كان الآباء دونهم في العمل، فلم ينقص ثواب الأبناء حين ألحق الله بهم آبائهم".

6.2. قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٦١﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى ﴿٦٢﴾﴾ (سورة النجم، الآية: 40، 41).

الشاهد: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى (41)﴾

يرى الإمام الطبري أن ضمير "الهاء" في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾ يعود إلى السعي، لأنه هو المحدث عنه في السياق، فقال رحمه الله: «﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾ يقول تعالى ذكره: ثم يُثَاب بسعيه ذلك الثواب الأوفى. وإنما قال جل ثناؤه ﴿الْأَوْفَى﴾ لأنه أوفى ما وعد خلقه عليه من الجزاء، و"الهاء" في قوله ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ﴾ من ذكر السعي، وعليه عادت»⁽¹⁾.

ذكر الزمخشري عائد ضمير الهاء وأجاز عوده إلى "الجزاء" أي يجزيه الجزاء فقال رحمه الله: «﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ﴾ ثم يجزى العبد سعيه، يقال: جزاه الله عمله وجزاه على عمله، ... ويجوز أن يكون الضمير للجزاء، ثم فسره بقوله الجزاء الأوفى أو أبدله عنه»⁽²⁾. غير أن أباحيان عقَّب على القول الأخير الذي ذكره الزمخشري فقال أبوحيان رحمه الله: «قَالَ الرَّمَّخْشَرِيُّ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ لِلْجَزَاءِ، ثُمَّ فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: الْجَزَاءُ الْأَوْفَى. وَإِذَا كَانَ تَفْسِيرًا لِلْمَصْدَرِ الْمُنْصُوبِ فِي يُجْزَاهُ، فَعَلَى مَاذَا انْتَصَبَ؟ وَأَمَّا إِذَا كَانَ بَدَلًا، فَهُوَ مِنْ بَابِ بَدَلِ الظَّاهِرِ مِنَ الضَّمِيرِ الَّذِي يُفْسِّرُهُ الظَّاهِرُ، وَهِيَ مَسْأَلَةٌ خِلَافٍ، وَالصَّحِيحُ الْمُنْعُ»⁽³⁾. يفهم من كلام أبي حيان منع عود ضمير "الهاء" الغائب في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ﴾ إلى الجزاء لكونه بدلاً.

أما ابن الجوزي فقد وافق الطبري في عائد ضمير "الهاء" فقال رحمه الله: قوله تعالى:

(1) تفسير الطبري، ج 22/547.

(2) الزمخشري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، الطبعة: الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ، ج 4/482.

(3) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج 10/25.

﴿يُجْزَاهُ﴾ الهاء عائدة على السعي، ﴿الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾ أي: الأكمل الأتم⁽¹⁾.

قال الإمام الرازي رحمه الله: «الهاء ضَمِيرُ السَّعْيِ، أَي: ثُمَّ يُجْزَى الْإِنْسَانُ سَعْيَهُ بِالْجَزَاءِ.... وَفِيهِ وَجْهٌ آخَرٌ وَهُوَ أَنَّ الضَّمِيرَ لِلْجَزَاءِ، وَتَقْدِيرُهُ ثُمَّ يُجْزَى جَزَاءً وَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾ تَفْسِيرًا أَوْ بَدَلًا»⁽²⁾.

يظهر لي -والله أعلم- أن ضمير "الهاء" من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ﴾ [الْجَزَاءُ الْأَوْفَى] تعود إلى السعي، ويجوز عوده إلى "الجزاء" أي يجزي العبد سعيه بالجزاء الأوفر، فنصب بنزع الخافض، ويجوز أن يكون مصدرًا وأن تكون "الهاء" للجزاء المدلول عليه بيحزي والجزاء بدله⁽³⁾.

7.2. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (سورة الواقعة، الآية: 77، 78، 79).

الشاهد: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾

يرى الإمام الطبري رحمه الله أن ضمير "الهاء" في ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ تعود إلى الكتاب وهو اللوح المحفوظ وهو أقرب مذكور فقال: «قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: لا يمسّ ذلك الكتاب المكنون إلا الذين قد طهّروهم الله من الذنوب»⁽⁴⁾. ثم بيّن من هم «المطهرون» فقال: «والصواب من القول من ذلك عندنا، أن الله جلّ ثناؤه، أخبر أنه لا يمسّ الكتاب المكنون إلا المطهرون فعلم بخبره المطهرين، ولم يخص بعضاً دون بعض؛ فالملائكة من المطهرين، والرسل والأنبياء من المطهرين وكل من كان مطهراً من الذنوب، فهو ممن استثنى، وعني بقوله: ﴿إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾»⁽⁵⁾. لقد عقّب ابن العربي المالكي على من قال بعود ضمير "الهاء" في ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ إلى الكتاب المكنون، فقال رحمه الله: «أمّا

(1) أبو الفرج جمال الدين، المعروف بابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، 1422هـ، ج4/193.

(2) فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ، ج277/29.

(3) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج161/5.

(4) تفسير الطبري، ج150/23.

(5) المصدر نفسه، ج152/23.

قَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتَابِ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ فَهُوَ بَاطِلٌ؛ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا تَنَالُهُ فِي وَقْتٍ، وَلَا تَصِلُ إِلَيْهِ بِحَالٍ؛ فَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ بِهِ ذَلِكَ لَمَا كَانَ لِلْإِسْتِثْنَاءِ فِيهِ مَحَلٌّ⁽¹⁾.

قال ابن الجوزي: «قوله عز وجل: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ من قال: إنه اللوح المحفوظ، فالمطهرون عنده: الملائكة، وهذا قول ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد وسعيد بن جبير. فعلى هذا يكون الكلام خبراً. ومن قال: هو المصحف.... فيكون ظاهر الكلام النفي، ومعناه النبي»⁽²⁾.

أما الإمام الرازي فرجح عود ضمير "الهاء" في ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ إلى الكتاب فقال: «﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ الضمير عائد إلى الكتاب على الصحيح»⁽³⁾.

يظهر لي -والله أعلم- أن ضمير الغائب في قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ يعود إلى الكتاب وهو المصحف، لأن سياق الآيات كانت تتحدث عن القرآن الكريم قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾، فيكون المعنى: "لا يمسّ المصحف إلا المتطهر غير المحدث، سواء حدثا أكبر أم أصغر".

8.2. قال الله تعالى: ﴿تَقْرُجُ الْمَلَكِيَّةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۖ فَأَصْبَحَ صَبْرًا جَمِيلًا ۚ إِنَّهُمْ يَرُؤْنَهُ بَعِيدًا ۚ وَرَأَوْهُ قَرِيبًا ۚ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۚ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۚ وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ۚ﴾ (سورة المعارج، الآية: 4، 5، 6، 7، 8، 9، 10).

الشاهد: ﴿إِنَّهُمْ يَرُؤْنَهُ بَعِيدًا﴾

اختلف العلماء في عائد ضمير "الهاء" من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرُؤْنَهُ بَعِيدًا﴾ فمنهم من أعاده إلى "القيامة"، ومنهم من أعاده إلى "العذاب"، وهذا الأخير هو اختيار ابن جرير الطبري، فقال رحمه الله: «الهاء والميم من قوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾ من ذكر الكافرين، و"الهاء" من قوله: ﴿يَرُؤْنَهُ﴾ من ذكر العذاب»⁽⁴⁾. يمكن أن نعقب على ابن جرير الطبري رحمه الله بأن

(1) أحكام القرآن، لابن العربي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الثالثة، 1424هـ - 2003م، ج4/175.

(2) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج4/228.

(3) تفسير الرازي، ج29/431.

(4) تفسير الطبري، ج23/604.

"العذاب" غير وارد في سياق الآيات بل هو تقدير، أما عود الضمير إلى "القيامة" فهو أولى لأن سياق الآية كانت تتحدث عن يوم القيامة كما في قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (4).

يرى الإمام الفرّاء أن ضمير الغائب في ﴿يَرُونَهُ﴾ يعود إلى البعث فقال رحمه الله: وقوله: «**﴿إِنَّهُمْ يَرُونَهُ بَعِيدًا﴾** يريد: البعث، **﴿وَنَرَاهُ نَحْنُ قَرِيبًا﴾** لأن كل ما هو آت قريب»⁽¹⁾. أما الإمام ابن عطية فقد رجح عود ضمير "لهاء" في قوله تعالى: **﴿إِنَّهُمْ يَرُونَهُ بَعِيدًا﴾** إلى "القيامة" فقال رحمه الله: وقوله تعالى: «**﴿إِنَّهُمْ يَرُونَهُ بَعِيدًا﴾** يعني يوم القيامة لأنهم يكذبون به، فهو في غاية البعد عندهم، والله تعالى يراه قريباً من حيث هو واقع وآت وكل آت قريب. وقال بعض المفسرين: الضمير في ﴿يَرُونَهُ﴾ عائد على العذاب»⁽²⁾.

رجّح ابن الجوزي عود الضمير الغائب في ﴿يَرُونَهُ﴾ إلى العذاب فقال رحمه الله: «**﴿إِنَّهُمْ يَرُونَهُ﴾** يعني: العذاب بَعِيداً غير كائن وَنَرَاهُ قَرِيباً كائناً، لأن كل ما هو آت قريب»⁽³⁾.

أما الرازي فذكر القولين في عائد ضمير الغائب في ﴿يَرُونَهُ﴾ ولم يرجّح فقال رحمه الله: «**الضَّمِيرُ فِي ﴿يَرُونَهُ﴾ إِلَى مَاذَا يَعُودُ؟ فِيهِ وَجْهَانِ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَى الْعَذَابِ الْوَاقِعِ وَالثَّانِي: أَنَّهُ عَائِدٌ إِلَى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (المعارج: 4) أَي: يَسْتَبْعِدُونَهُ عَلَى جَهَةِ الْإِحَالَةِ وَنَحْنُ نَرَاهُ قَرِيباً هَيْئًا فِي قُدْرَتِنَا غَيْرَ بَعِيدٍ عَلَيْنَا وَلَا مُتَعَدِّرٍ﴾**»⁽⁴⁾.

أما الشوكاني فيرى جواز عود ضمير الهاء إلى العذاب وإلى القيامة فقال رحمه الله: «**﴿إِنَّهُمْ يَرُونَهُ بَعِيدًا﴾** أَي: يَرَوْنَ الْعَذَابَ الْوَاقِعَ بِهِمْ، أَوْ يَرَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعِيدًا»⁽⁵⁾.

بعد ذكر أقوال أهل العلم في عائد ضمير الغائب من قوله تعالى: **﴿إِنَّهُمْ يَرُونَهُ بَعِيدًا﴾** يظهر لي -والله أعلم- عوده إلى يوم "القيامة" لأنه أقرب مذكور، وهو المُحَدَّث عنه في سياق الآيات، أما عوده إلى "العذاب" فهو تقدير، والأصل عوده ضمير الغائب إلى المُحَدَّث عنه

(1) الفرّاء، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الطبعة: الأولى، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ج3/184.

(2) تفسير ابن عطية، ج5/366.

(3) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج4/337.

(4) تفسير الرازي، ج30/640.

(5) الشوكاني، فتح القدير، ج5/346.

أولى من إعادته إلى غير المذكور.

9.2. قال الله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ (سورة القيامة، الآية، 5).

الشاهد: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ (5).

يرى الإمام الطبري أن ضمير "هاء" في قوله تعالى: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ يعود إلى يوم "القيامة" فقال رحمه الله: «و"هاء" على هذا القول في قوله: ﴿أَمَامَهُ﴾ من ذكر القيامة، وقد ذكرنا الرواية بذلك قبل»⁽¹⁾.

ذكر أبو حيان القولين في عود ضمير الغائب في قوله تعالى: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ ورجح عوده إلى "الإنسان" فقال رحمه الله: «فَالضَّمِيرُ فِي ﴿أَمَامَهُ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَهُوَ الظَّاهِرُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا يَفْتَضِي أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ عَلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي زَمَانٍ وَجُودِهِ أَمَامَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»⁽²⁾.

يرى السمين الحلبي رحمه الله أن ضمير الغائب يعود إلى "الإنسان" فقال: «والضمير في ﴿أَمَامَهُ﴾ الظاهر عَوْدُهُ عَلَى الْإِنْسَانِ. وقال ابن عباس: يعودُ على يوم القيامة بمعنى: أنه يريد شَهَوَاتِهِ لِيَفْجُرَ فِي تَكْذِيبِهِ بِالْبَعْثِ بَيْنَ يَدَيِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»⁽³⁾.

بعد عرض أقوال أهل التفسير تبين لي -والله أعلم- أن "هاء" الضمير الغائب في قوله تعالى: ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ يعود إلى "الإنسان" وهو أقرب مذكور، فيكون المعنى: "أن الإنسان وهو الكافر، يَظْلِمُ ويَكْفُر بالحساب، وهو الذي يُعَجِّلُ الذنوبَ ويُوَجِّرُ التوبة".

10.2. قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمِنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ۝١٢ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۝١٤﴾

(سورة عبس، الآية: 11، 12، 13، 14).

الشاهد: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾.

اختلف العلماء في تحديد "هاء" ضمير الغائب في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ فمنهم من أعاده إلى السورة وهي "عبس" ومنهم من أعاده إلى "آيات القرآن كلها"، ومنهم من أعاده

(1) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج4/400.

(2) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج10/345.

(3) السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ج10/566.

إلى "الموعظة"، فنجد أن الإمام الطبري يرجح القول الأول فقال رحمه الله: «أن ضمير و"هاء" في قوله: "إِنَّهَا" للسورة، وفي قوله: ﴿ذَكَرُهَا﴾ للتنزيل والوحي. ﴿فِي صُحُفٍ﴾ يقول: إنها تذكرة ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ يعني: في اللوح المحفوظ، وهو المرفوع المطهر عند الله»⁽¹⁾. فترجيح ابن جرير الطبري لعائد ضمير الغائب ﴿إِنَّهَا﴾ إلى سورة "عبس" لأنَّ السياق يقتضيه.

ذكر ابن الجوزي قولين في ضمير "هاء" ضمير الغائب فقال رحمه الله⁽²⁾: «﴿إِنَّهَا﴾ في المكني عنها قولان: أحدهما: آيات القرآن، قاله مقاتل. والثاني: هذه السورة، قاله الفراء»⁽³⁾. أما الإمام البغوي فرجح عود "هاء" الغائب إلى "الموعظة" فقال رحمه الله: «﴿إِنَّهَا﴾، يَعْنِي: هَذِهِ الْمَوْعِظَةُ»⁽⁴⁾.

رجح أبوحيان إلى عود ضمير "هاء" إلى "آيات القرآن" فقال رحمه الله: «﴿كَلَّا إِنَّهَا﴾: أَيُّ سُورَةِ الْقُرْآنِ وَالْآيَاتِ، تَذَكُّرُ: عِظَةٌ يُنْتَفَعُ بِهَا»⁽⁵⁾، ثم علل هذا التوجيه في إتيان المضمّر مذكراً فقال: «أَتَى بِالضَّمِيرِ مُذَكَّرًا لِأَنَّ التَّذَكُّرَ هِيَ الذِّكْرُ، وَهِيَ جُمْلَةُ مُعْتَزِضَةٍ تَتَضَمَّنُ الْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ، ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾، وَاعْتَزَّضَتْ بَيْنَ تَذَكُّرٍ وَبَيْنَ صِفَتِهِ، أَيُّ تَذَكُّرٍ: كَانَتْهُ»⁽⁶⁾.

أما ابن كثير فذكر ثلاثة أقوال في عائد "هاء" الضمير الغائب ورجح عوده إلى السورة (عبس)، وأجاز عوده إلى الوصية والموعظة فقال رحمه الله: «وَقَوْلُهُ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذَكُّرٌ﴾ أَيُّ: هَذِهِ السُّورَةُ، أَوْ الْوَصِيَّةُ بِالمَسَاوَاةِ بَيْنَ النَّاسِ فِي إِبْلَاحِ الْعِلْمِ مِنْ شَرِيفِهِمْ وَوَضْعِهِمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذَكُّرٌ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنُ»⁽⁷⁾.

(1) تفسير الطبري، ج 221/24.

(2) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج 429/4.

(3) الفراء، معاني القرآن، ج 236/3.

(4) الإمام البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن [تفسير البغوي]، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الطبعة: الأولى،

دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ، ج 210/5.

(5) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج 408/10.

(6) المصدر نفسه، ج 408/10.

(7) أبو الفداء بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الطبعة الثانية، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999م، ج 321/8.

يرى الطاهر بن عاشور من المعاصرين أن ضمير "هاء" الغائب تعود إلى "الوصية" وأجاز عودها إلى "الآيات التي قرأها النبي عليه الصلاة والسلام في ذلك المجلس" فقال رحمه الله: «وَضَمِيرُ ﴿إِنَّهَا﴾ عَائِدٌ إِلَى الدَّعْوَةِ الَّتِي تَضَمَّنَهَا قَوْلُهُ: فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّقْ (سورة عبس، الآية: 6)، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَنَّ هَذِهِ الْمُوعِظَةَ تَذَكُّرٌ لَكَ وَتَنْبِيهُ لِمَا غَفَلْتَ عَنْهُ وَلَيْسَتْ مَلَامًا وَإِنَّمَا يُعَاتِبُ الْحَبِيبُ حَبِيبَهُ. وَيَجُوزُ عِنْدِي أَنْ يَكُونَ ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذَكُّرٌ﴾ اسْتِثْنَاءً ابْتِدَائِيًّا مُوجَّهًا إِلَى مَنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُوهُ فَبَيْلَ نُزُولِ السُّورَةِ فَإِنَّهُ كَانَ يَعْزِضُ الْقُرْآنَ عَلَى الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ وَمَنْ مَعَهُ، وَكَانُوا لَا يَسْتَجِيبُونَ إِلَى مَا دَعَاهُمْ وَلَا يُصَدِّقُونَ بِالْبُعْثِ... فَيَكُونُ ضَمِيرُ ﴿إِنَّهَا تَذَكُّرٌ﴾ عَائِدًا إِلَى الْآيَاتِ الَّتِي قَرَأَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ»⁽¹⁾.

يظهر لي -والله أعلم- أن ضمير "الهاء" في قوله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذَكُّرٌ﴾ يعود إلى "آيات القرآن كلها"، وتدخل فيه ضمنيا سورة "عبس"، لأن السياق يقتضيه. فيكون المعنى: "كلا إن آيات القرآن كلها، تذكرة".

11.2. قال الله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۖ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۖ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۚ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝﴾ (سورة الطارق، 5 الآية: 6، 7، 8).

الشاهد: ﴿عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾

ذكر الإمام الطبري أقوال أهل العلم في تعيين عائد ضمير "الهاء" في ﴿رَجْعِهِ﴾ فقال: «واختلف أهل التأويل في "الهاء" التي في قوله: ﴿عَلَى رَجْعِهِ﴾ على ما هي عائدة؟، فقال بعضهم: هي عائدة على "الماء". وقالوا: معنى الكلام: إِنَّ اللَّهَ عَلَى رَدِّ النُّطْفَةِ فِي الْمَوْضِعِ الَّتِي خَرَجَتْ مِنْهُ ﴿لَقَادِرٌ﴾»⁽²⁾.

ثم ذكر القول الثاني فقال: «وقال آخرون، ممن زعم أن "الهاء" للإنسان: معنى ذلك أنه على إحيائه بعد مماته لقادر»⁽³⁾.

(1) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة 1984م. ج 30/115.

(2) تفسير الطبري، ج 24/356.

(3) المصدر نفسه، ج 24/358.

ثم رَجَّحَ عود ضمير "الهاء" في ﴿رَجْعِهِ﴾ إلى الإنسان المخلوق من "ماء" دافق، معتمدا في ذلك على سياق الآيات فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: إن الله على ردِّ الإنسان المخلوق من ماء دافق من بعد مماته حيًّا، كهيئته قبل مماته لقادر، وإنما قلت: هذا أولى الأقوال في ذلك بالصواب؛ لقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ فكان في إتباعه قوله: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ نبأ من أنباء القيامة، دلالة على أن السابق قبلها أيضًا منه، ومنه ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ يقول تعالى ذكره: إنه على إحيائه بعد مماته لقادر يوم تبلى السرائر، فالיום من صفة الرجوع، لأن المعنى: إنه على رجعه يوم تبلى السرائر لقادر»⁽¹⁾.

قال ابن الجوزي: ﴿عَلَى رَجْعِهِ﴾ الرجوع: ردُّ الشيء إلى أول حاله، وفي هذه "الهاء" قولان: أحدهما: أنها تعود على "الإنسان". ثم في المعنى قولان: أحدهما: أنه على إعادة الإنسان حيًّا بعد موته قادر.... والقول الثاني: أنها تعود على "الماء"»⁽²⁾.

ذكر الإمام أبو حيان القولين في المسألة واختار عود الضمير ﴿عَلَى رَجْعِهِ﴾ إلى "الإنسان" فقال: «﴿عَلَى رَجْعِهِ﴾ قال ابن عباس وقتادة: الضمير في ﴿رَجْعِهِ﴾ عائد على الإنسان، أي على رده حيًّا بعد موته، أي: من أنشأه أولاً قادر على بعثه يوم القيامة لا يعجزه شيء. وقال الضحاك: على رده من الكبر إلى الشباب. وقال عكرمة ومجاهد: الضمير عائد على "الماء"، أي على رد الماء في الإحليل أو في الصلب... وعلى قول ابن عباس، وهو الأظهر»⁽³⁾.

قال السمين الحلبي: «قوله: ﴿عَلَى رَجْعِهِ﴾ في "الهاء" وجهان، أحدهما: أنه ضمير الإنسان، أي: على بَعثِهِ بعد موته. والثاني: أنه ضمير الماء، أي: يُرْجَعُ المني في الإحليل أو الصلب»⁽⁴⁾.

قال ابن كثير رحمه الله: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ [أَحَدُهُمَا] عَلَى رَجْعِ هَذَا الْمَاءِ الدَّافِقِ، إِلَى مَقَرِّهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ لِقَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ. قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَغَيْرُهُمَا. [وَالْقَوْلُ الثَّانِي] إِنَّهُ عَلَى رَجْعِ هَذَا الْإِنْسَانِ الْمَخْلُوقِ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ أَيْ إِعَادَتُهُ وَبَعثُهُ

(1) تفسير الطبري، ج 358/24.

(2) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج 429/4.

(3) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج 452/10.

(4) السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ج 754-755.

إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ لِقَادِرٌ لَّأَنَ مِنْ قَدَرٍ عَلَى الْإِعَادَةِ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا الدَّلِيلَ فِي الْقُرْآنِ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ، وَهَذَا الْقَوْلُ قَالَ بِهِ الضَّحَّاكُ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ أَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ أَيْ تَظْهَرُ وَتَبْدُو وَيَبْقَى السِّرُّ عَلَانِيَةً وَالْمَكْنُونُ مَشْهُورًا⁽¹⁾.

من خلال ما سبق يظهر لي -والله أعلم- أن ضمير "الهاء" في قوله تعالى: ﴿عَلَى رَجْعِهِ﴾ لِقَادِرٌ يعود إلى "الإنسان"، لأن سياق الآيات تتحدث عن الإنسان، فعود ضمير "الهاء" إلى المُحَدَّث عنه أولى من إعادته إلى غيره، وهذا الذي رجحه الإمام الطبري رحمه الله.

12.2. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَلْ رَبُّكَ بِهِمْ بَعْدَ إِرْمِهِمْ ذَاتَ الْعِمَادِ ۖ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ

﴿٨﴾﴾ (سورة الفجر، الآية: 6، 7، 8).

الشاهد: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (8)

يرى الإمام الطبري أن ضمير "الهاء" في قوله تعالى: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ يجوز عوده إلى "عاد" وهي القبيلة، وكذا إلى "إرم" فقال رحمه الله: وقوله: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ يقول جل ثناؤه: ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم التي لم يخلق مثلها في البلاد، يعني: مثل عاد، والهاء عائدة على "عاد". وجائز أن تكون عائدة على ﴿إرم﴾ لما قد بينا قبل أنها "قبيلة". وإنما عني بقوله: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾ في العِظَم والبَطْش والأيد⁽²⁾. أما الإمام ابن عطية فقد أجاز عود ضمير "الهاء" في قوله تعالى: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ إما إلى "المدينة"، وإما إلى "القبيلة" فقال رحمه الله: «والضمير في ﴿مِثْلُهَا﴾ يعود إما على المدينة، وإما على القبيلة»⁽³⁾.

وسار على نسقه أبو حيان فقال رحمه الله: «وَالضَّمِيرُ فِي ﴿مِثْلُهَا﴾ عَائِدٌ عَلَى الْمَدِينَةِ الَّتِي هِيَ ذَاتُ الْعِمَادِ فِي الْبِلَادِ، أَيْ: فِي بِلَادِ الدُّنْيَا، أَوْ عَائِدٌ عَلَى الْقَبِيلَةِ، أَيْ فِي عِظَمِ أَجْسَامِ وَقُوَّةِ»⁽⁴⁾. أما الإمام الرازي فقد ذكر قولاً ثالثاً في عود ضمير "الهاء" وهو عوده إلى "العماد"

(1) تفسير ابن كثير، ج 8/369.

(2) تفسير الطبري، ج 24/407.

(3) تفسير ابن عطية، ج 5/478.

(4) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج 10/472.

فقال رحمه الله: «الثَّالِثُ: أَنَّ الْكِنَايَةَ عَائِدَةٌ إِلَى الْعِمَادِ، أَي: لَمْ يَخْلُقْ مِثْلُ تِلْكَ الْأَسَاطِينِ فِي الْبِلَادِ، وَعَلَى هَذَا فَالْعِمَادُ جَمْعُ عَمَدٍ»⁽¹⁾.

الإمام ابن كثير ذكر أقوال أهل العلم ورجح ما ذهب إليه الطبري، وضعف قول من قال عود ضمير "الهاء" إلى "العِمَاد" فقال رحمه الله: «وَقَوْلُهُ: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ أَعَادَ ابْنُ زَيْدٍ الضَّمِيرَ عَلَى الْعِمَادِ؛ لِإِزْفَاعِهَا، وَقَالَ: بَنَوْا عُمْدًا بِالْأَخْفَافِ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ. وَأَمَّا قِتَادَةُ وَابْنُ جَرِيرٍ فَأَعَادَ الضَّمِيرَ عَلَى الْقَبِيلَةِ، أَي: لَمْ يَخْلُقْ مِثْلُ تِلْكَ الْقَبِيلَةِ فِي الْبِلَادِ، يَعْنِي فِي زَمَانِهِمْ. وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الصَّوَابُ، وَقَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ وَمَنْ ذَهَبَ مَذْهَبُهُ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ أَرَادَ ذَلِكَ لَقَالَ: الَّتِي لَمْ يُعْمَلْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾»

بعد ذكر أقوال المفسرين يظهر للباحث -والله أعلم- أن ضمير "الهاء" في قوله تعالى: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ أنه يعود إلى "عاد" وهي القبيلة التي كانت في زمانهم، لأن سياق يقتضيه، وهذا الذي رجحه ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى.

13.2. قال الله تعالى: ﴿وَالْعَدِيدَ صَبَحًا ۝ فَالْمُورِيكَ قَدَحًا ۝ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝ وَلَئِنَّ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَاشْهَادٌ ۝ وَلَئِنَّ رَحْمَتَ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝ أَفَلَا يَعْلَمُونَ إِذَا بُعِثَ رَمَاهُ فِي الْقُبُورِ ۝﴾ (سورة العاديات، الآية: 1، 2، 3، 4، 5، 6، 7، 8، 9).

الشاهد: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾

رجح الإمام ابن جرير الطبري عود ضمير "الهاء" في ﴿به﴾ إلى "الموضع" أو "المكان" وإن لم يجر له ذكر في السياق، فعاد الضمير إلى محذوف ثقة بفهم السامع، فقال رحمه الله: «وَقَوْلُهُ ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فَرَفَعْنَ بِالْوَادِي غِبَارًا: وَالنَّقْعُ: الْغِبَارُ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ التَّرَابُ. وَ"الهَاءُ" فِي قَوْلِهِ ﴿بِهِ﴾ كِنَايَةٌ اسْمُ الْمَوْضِعِ، وَكُنِيَ عَنْهُ، وَلَمْ يَجْرَ لَهُ ذِكْرٌ، لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ الْغِبَارَ لَا يَثَارُ إِلَّا مِنْ مَوْضِعٍ، فَاسْتَغْنَى بِفَهْمِ السَّامِعِينَ بِمَعْنَاهُ مِنْ ذِكْرِهِ»⁽²⁾.

وذهب إلى هذا القول الإمام البغوي فقال رحمه الله: «﴿فَأَثَرْنَ بِهِ﴾، أَي هَيَّجَنَ بِمَكَانٍ

(1) تفسير الرازي، ج 31/154.

(2) تفسير الطبري، ج 24/563.

سيرها كِنَايَةً عَنْ غَيْرِ مَذْكُورٍ لِأَنَّ الْمَعْنَى مَفْهُومٌ»⁽¹⁾.

ذكر الإمام الرازي ثلاثة أقوال في المسألة فقال رحمه الله: «الضمير في قوله: ﴿بِهِ﴾ إلى ماذا يعود؟ فيه وجوه أحدها: وهو قول "الفراء"⁽²⁾ أنه عائد إلى المكان الذي انتهى إليه، والموضع الذي تقع فيه الإغارة، لأن في قوله: فالمغيرات صبحا دليلا على أن الإغارة لابد لها من وضع، وإذا علم المعنى جاز أن يكفى عما لم يجر ذكره بالتصريح كقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (سورة القدر، الآية: 1) وثانها: إنه عائد إلى ذلك الزمان الذي وقعت فيه الإغارة، أي: فأثرن في ذلك الوقت نقعا وثالثها: وهو قول "الكسائي" أنه عائد إلى العدو، أي: فأثرن بالعدو نقعا، وقد تقدم ذكر العدو في قوله: ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾»⁽³⁾.

قال أبو حيان: «والضمير في ﴿بِهِ﴾ عائد ... على الصُّبْح، أي: هيجن في ذلك الوقت غبارا.... وقيل: الضمير في ﴿بِهِ﴾...يعود على العدو الدال عليه والعاديات أيضا. وقيل: يعود على المكان الذي يقتضيه المعنى، وإن لم يجر له ذكر، لدلالة والعاديات وما بعدها عليه»⁽⁴⁾.

أما الطاهر بن عاشور من المعاصرين يرى أن ضمير "هاء" الغائب تعود إلى "العدو"، ويجوز عودها إلى "الصُّبْح" فقال رحمه الله: «وَالضَّمِيرُ الْمُجْرُورُ ﴿بِهِ﴾ عَائِدٌ إِلَى الْعَدُوِّ الْمَأْخُوذِ مِنَ الْعَادِيَاتِ، وَيَجُوزُ كَوْنُ "الْبَاءِ" ظَرْفِيَّةً وَالضَّمِيرُ عَائِدًا إِلَى صُبْحًا، أَيْ أَثَرْنَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَهُوَ وَقْتُ إِغَارَتِهَا»⁽⁵⁾.

مما سبق يتبين لي -والله أعلم- أن ضمير "الهاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ يعود إلى "المكان" الذي حلت فيه الخيل فأثارت غبارًا وهو النَّقْع، حتى وإن لم يأتِ ذِكْرٌ لكلمة "المكان" أو "الموضع"، لأن السياق الآيات يحتمله، فحذف ثقةً بفهم السامع، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (سورة القدر، الآية: 1) أي: أنزلنا القرآن في ليلة القدر.

14.2. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ١ وَلَئِنَّكَ لَشَهِيدٌ ٢﴾ (سورة العاديات،

(الآية: 6، 7)

(1) تفسير البغوي، ج 5/296.

(2) الفراء، معاني القرآن، ج 3/285.

(3) تفسير الرازي، ج 32/260-261.

(4) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج 10/529.

(5) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 30/501.

الشاهد: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾

- رجح الإمام الطبري عود ضمير "لهاء" في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ إلى "الله تعالى"، ولم يصحّ بذكر عائد الضمير وإنما يفهم ضمناً من كلامه فقال رحمه الله: «وقوله: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ يقول تعالى ذكره: إن الله على كنوده ربه لشهيد: يعني لشاهد»⁽¹⁾.

ذكر الإمام البغوي قولين في عائد ضمير "لهاء" ﴿وَإِنَّهُ﴾ فقال رحمه الله: «قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُونِهِ كُنُودًا لِّشَاهِدٍ. وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: "لَهَاءُ" رَاجِعَةٌ إِلَى الْإِنْسَانِ، أَيُّ: إِنَّهُ شَاهِدٌ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِمَا يَصْنَعُ»⁽²⁾.

قال الإمام ابن عطية: «﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ يحتمل الضمير أن يعود على الله تعالى، وقاله قتادة: أي وربه شاهد عليه، وتفسير هذا الخبر يقتضي الشهادة بذلك، ويحتمل أن يعود على "الإنسان"، أي: أفعاله وأقواله وحاله المعلومة من هذه الأخلاق تشهد عليه، فهو شاهد على نفسه بذلك، وهذا قول الحسن ومجاهد»⁽³⁾.

ذكر ابن الجوزي القولين ولم يرجح فقال رحمه الله: «قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ في "هَاء" الكناية قولان: أحدهما: أنها ترجع إلى الله عز وجل فقال: وجلّ، تقديره: وإن الله على كفره لشهيد. والثاني: أنها ترجع إلى الإنسان، تقديره: إن الإنسان شاهد على نفسه أنه كنود»⁽⁴⁾.

أما الرازي فقد رجح عود ضمير "لهاء" إلى الله تعالى لأنه أقرب مذكور فقال رحمه الله: «﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ وَفِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْإِنْسَانَ عَلَىٰ ذَٰلِكَ أَيُّ عَلَىٰ كُنُودِهِ لَشَهِيدٌ يَشْهَدُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِذَٰلِكَ..... الْقَوْلُ الثَّانِي: الْمُرَادُ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ قَالُوا: وَهَذَا أَوْلَىٰ لِأَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ إِلَى أَقْرَبِ الْمَذْكُورَاتِ وَالْأَقْرَبُ هَاهُنَا هُوَ لَفْظُ الرَّبِّ تَعَالَى وَيَكُونُ ذَٰلِكَ كَالْوَعِيدِ وَالزَّجْرِ لَهُ عَيْنِ الْمُعَاصِي مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يُخَصِّي عَلَيْهِ أَعْمَالَهُ»⁽⁵⁾.

(1) تفسير الطبري، ج 567/24.

(2) تفسير البغوي، ج 296/5.

(3) تفسير ابن عطية، ج 515، 514/5.

(4) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ج 482/4.

(5) تفسير الرازي، ج 262/32.

يرى الإمام أبو حيان أن ضمير "هاء" في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ يعود إلى الإنسان بحجة أن تناسق الضمير لشيء واحد أولى من إعادته إلى متفرقي، كما أن الإنسان هو المحدث عنه في السياق فقال رحمه الله: «وَالظَّاهِرُ عَوْدُ الضَّمِيرِ فِي وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ، أَيَّ يَشْهَدُ عَلَىٰ كُنُودِهِ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَجْحَدَهُ لِظُهُورِ أَمْرِهِ وَقَالَهُ الْحَسَنُ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ،.... وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: هُوَ عَائِدٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، أَيَّ وَرَبُّهُ شَهِدٌ عَلَيْهِ، وَهُوَ عَلَى سَبِيلِ الْوَعِيدِ.... وَالْإِنْسَانُ هُنَا هُوَ الْمُحْدَثُ عَنْهُ وَالْمُسْتَدُّ إِلَيْهِ الْكُنُودُ. وَأَيْضًا فَتَنَاسُقُ الضَّمَائِرِ لِوَاحِدٍ مَعَ صِحَّةِ الْمَعْنَى أَوَّلَى مِنْ جَعْلِهِمَا لِمُخْتَلِفَيْنِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا تَوَسَّطَ الضَّمِيرُ بَيْنَ ضَمِيرَيْنِ عَائِدَيْنِ عَلَى وَاحِدٍ»⁽¹⁾.

بعد ذكر أقوال العلماء في تحديد "هاء" ضمير الغائب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ يظهر لي -والله أعلم- أن الضمير ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعود إلى الإنسان لأنه هو المحدث عنه في السياق، كما أن عودة الضمير إلى شيء واحد أولى من إعادته إلى متعدّد، فيكون المعنى: "إن الإنسان يشهد على كُنُودِهِ وجهوده".

خاتمة:

بعد عرض المادة العلمية في "هاء" ضمير الغائب وأثرها في توجيه المعاني عند الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره، من خلال نماذج مختارة من سورة الجاثية إلى سورة العاديات، ومع مناقشة الأقوال التفسيرية لدى المفسرين وأدلّتهم على وجه الاختصار من دون إخلالٍ، ولا تطويل من دون إملالٍ، كما أن البحث تناول رأي الباحث في كل مسألة من المسائل المعروضة فيه، ولقد ظهرت لي بعض النتائج وهي كالآتي:

(1) إنَّ في اختلاف عائد ضمير الغائب، هناك ما هو اختلاف تنوع (لا يضرّ بالمعنى)، ولكنه يختلف في توجيه المعنى، وهناك ما هو اختلاف تضاد، وهذا مما لا شك فيه أن المعنى يختلف، وكذلك الحكم.

(2) أحيانا ابن جرير الطبري لا يُصريح بذكر عائد ضمير الغائب، بل يكفي بتوجيه المعنى دون ذكره.

(3) الإمام ابن جرير الطبري يستعمل مصطلح الكناية (مصطلح الكوفيين)، بدل الضمير (مصطلح البصريين) والمراد عنده شيء واحد.

(1) أبو حيان، البحر المحيوط في التفسير، ج 529/10، 530.

- (4) إنّ اختلاف تحديد "هاء" ضمير الغائب سببٌ من أسباب اختلاف المفسرين، لما يترتب على أثرها ("هاء" ضمير الغائب) في توجيه المعنى في التفسير القرآني، ففي هذا البحث من خلال النماذج المختارة من سورة الجاثية إلى سورة العاديات، نجد أن الأثر يظهر في توجيه المعنى، دون الحكم الشرعي.
- (5) جواز عود "هاء" ضمير الغائب إلى محذوفٍ ثقةً بفهم السامع.

المراجع:

- * القرآن الكريم، رواية حفص عن عاصم.
- (1) أبو العباس أحمد بن يوسف، المعروف بالسمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، دار القلم، دمشق.
- (2) أبو الفداء بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الطبعة الثانية، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1999م.
- (3) أبو الفرج جمال الدين، المعروف بابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الطبعة الأولى. دار الكتاب العربي، بيروت، 1422هـ.
- (4) أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية. مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- (5) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صديقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت. 1420هـ.
- (6) أبو محمد الحسين البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، الطبعة الأولى. تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ.
- (7) أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة الأولى. دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ.
- (8) ابن العربي المالكي، أحكام القرآن، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الطبعة: الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـ - 2003م.
- (9) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- (10) الزمخشري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، الطبعة: الثالثة. دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ.
- (11) الشوكاني، فتح القدير، دار ابن كثير، الطبعة: الأولى. دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، 1414هـ.
- (12) فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب الطبعة الثالثة، درا إحياء التراث العربي، بيروت، 1420هـ.
- (13) الفراء، معاني القرآن، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الطبعة: الأولى. دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر.
- (14) محمد الطاهر بن عاشور، سنة التحرير والتنوير، «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر، تونس. 1984م.